مأساة المآسي

بقلم : الآنسة دعد الكيالي

اللد — فلسطين

كربلاء صلد لاينفطر حزناً وأسى لدى سماع هذا الاسم وأي عين لاتذرف أحرّ الدموع ؟ ! ألا إن مأساة اهل البيت لجرح مقدّس مقيم فى قلب كل مسلم .

ألا إنها مأساة انسانية خالد على الدهر يومها المشئوم

ألا إنها مأساة تذيب حتى الجماد وتبكي حتى جلاميد الصخور !

فى منتصف الربع الثالث من القرن الاول الهجري تموت معاوية الخليفة الاموي الاول ويكون قد اخذ البيعة من الناس لابنه يزيد الماجن الخليع فيعتلي الخليفة الاموي الثاني العرش ويأخذ بتجديد البيعة لنفسه فيبايعه الناس جميعا غير سيدنا الحسين وعبد الله بن الزبير .

فيطلب يزيد القرود والطنابير الى سيد شباب اهل الجنة ان يبايعه فيثور ثائر السبط الزكي ويغلي مرجل غضبه فيقول : (مثلى لايبايع سراً ولكن اذا اجتمع الناس نظرنا ونظرت) .

يا للمثالية المحلقة ! ان الحسين يتأبى من المبايعة ليزيد وحق له التأبي اذ من يزيد السكير العربيد هذا بالنسبة الى ابن فاطمة الزهراء سيدة النساء ؟ أجل من يزيد بالنسبة الى الحسين بن علي الامام التقي النقي ؟ ! شتان مابينهما شتان ! .

فمن الطبيعي اذن ان يفر الحسين من مبايعة يزيد فرار السليم من الاجرب يالله ! كيف ! كيف يسلم الامانة امانة القيام على خدمة هذه الامة وتدبير امورها الى رجل همه اللهو واللعب ؟ ! هل انقطع الرجال الصالحون ؟ أوليس سيدنا الحسين احق الناس بها لفضله وقرابته من رسول الله ؟! انّه لرجل الخلافة واوحدها من غير ما جدال .

انه إذن إن تأبى من المبايعة فاعا رعيا للحق يتأبى وليس طمعا بالخلافة .

فوقعة الطف كما سترون مأساة متعددة الحواشي ملونة الاطراف بل هي سفر حافل بالعبر مليء بالمواعظ وبعبارة شاملة جامعة انها ولاريب قطعة مهتزة بالحياة متلألئة بالصور فمن سيدنا الحسين الحر الرأي الثابت المقدام الى عبيد الله بن زياد والي الكوفة المتعجرف الخادع القاسي ، ومن آل الرسول الكرام واتباع الحسين المخلصين الى اهل الكوفة المنافقين .

خرج الحسين (عليه السلام) من المدينة إلى مكة تحت استار الظلام ومكث فيها اربعة اشهر تراءى إثناءها خبر امتناعه عن المبايعة الى مسامع اهل الكوفة وكانوا بدورهم لخلافة الامويين قالين ولآل الرسول متشيعين فبعثوا للحسين ان اقبل الينا تولك امرنا وننصرك فتردد الحسين فى امر تلبية ندائهم غير ان شدة الحاحهم اثرت فيه فاقبل الى الكوفة مصحوبا بأهله وعياله واصدقائه وانصاره ولكن ما ان اقترب من الكوفة حتى رأى ويا لهول ما رأى ! رأى امارات ناطقة بغدر الكوفة به واخلافهم لوعده اذ انه لم يجد للجيوش التي وعدوه بها من اثر ! فايقن انه لامحالة ضائع ، ولكن هل تطرق اليأس الى قلبه الكبير العامر بالايمان ؟ هل عصفت الخديعة بيقينه وزعزعته عن عقيدته ؟ ؟

إن شيئا من هذا كله لم يكن . لقد نصحه الكثيرون وهو في طريقه الى الكوفة ان يعود ولكنه كان على حق فى قدومه فلم ينكص على عقبيه انه ثبت الجنان ، شجاع القلب فلم لايجابه الاخطار وجها لوجه ؟ ! لقد خذلوه ومن هم ؟ انه قوي بالله ، عزيز بالحق . أيذل نفسه ايسأل المخلوق النصر من دون الخالق ؟ وكيف وهو القائل ؟ :

اذا ما عضك الدهر ... فلا تجنح الى الخلق

ولا تسأل سوى الله ... تعالى قاسم الرزق

فلو عشت وطوفت ... من الغرب الى الشرق

لما صادفت من يقد ... ر ان يسعد او يشقى

هذا مالايكون سيشرب الكأس حتى الثمالة

لقد استقبله الحر بن يزيد التميمي بألف فارس

فقال لهم السبط الزكي : (أيها الناس انها معذرة الى الله واليكم اني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم ان اقدم علينا فليس لنا امام يجمعنا على الهدى وقد جئتكم فان تعطوني ما اطمئن به من عهودكم اقدم معكم وان لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين رجعت عنكم الى المكان الذي اقبلت منه) .

فسكتوا غير ان الحر ماعتم ان انكر امر الكتب والرسل وقال : لقد وكلت الينا مهمة احضارك الى الوالي عبيد الله بن زياد ولسنا عن امرنا هذا بمتحولين فيجيبهم القوي بالحق الامين : للموت أحب الي يا قوم مما تأمرون ! ويحكم أي امر تبيتون لناوي ! أي امر تبيتون فاجاب القائد ابن بنت الرسول بأن لم يؤمر الا باحضاره واهله الى عبيد الله بن زياد وقد أبى فليأخذ طريقا لاتدخله الكوفة ولا توصل الى المدينة حتى يكتب هو الى ابن زياد ويكتب الحسين عليه السلام الى يزيد وابن زياد .

وما ان انتقل الحسين واصحابه الى كربلاء او الفخ الذي اعدوه لهم حتى اقبل عمر بن سعد من الكوفة بأربعة آلاف مقاتل .

وبدأ الحسين بالخبر الفاجع وهو انهم امروا بمنع الماء عنه وقتله او يبايع يزيد فيسألهم ان يمهلوه حتى يتفكر في امره فيعتزم الامام الصالح الثبات ويلتجىء الى الله بكل مافيه من قوة وجلد فيطويها ليلة من الليالي الليلاء يطويها مؤرثا مسهدا يبتهل الى الله ان يأخذ بيده في ليل حوادثه الداجي .

وأصبح الصباح واذا بهم يبدأون العداء ويتحرشون به فيهيب بمن معه وهم لايزيدون عن اثنين وسبعين مجاهد ما بين راجل وفارس بيما يبلغ جيش ابن زياد الخمسة آلاف عدداً .

لقد منعوه من الماء ، لقد أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، كانوا في كثرة من العدد وكان في قلة ! ولكن هل نالوا منه ؟ هل انتصروا عليه ؟ أجل لقد قتلوا أطفاله الطاهرين ، وافنوا رجاله المخلصين ولكن ما يضيره هذا كله هو الحر الرأي الحديدي الارادة !

إن من دينه وتقواه في حصن منيع ، ومن عقيدته الراسخة القوية في حرز حريز سيحارب حتى النسمة الاخيرة سيحارب ولو منعوا عنه الماء ، سيحارب ولو أحاطوا به من كل جانب ، أجل ثم أجل سيحارب ولو أن كل قطعة من كليمة من سهام الاعداء واسنتهم ، سيحارب الظلم والبغي

وهكذا يموت الحسين افظع ميتة وانبلها ايضاً ، يموت دفاعا عن الحق ورفعاً للوائه

يالهم من جبناء أنذال يتكاثرون على ابن بنت رسول صلى الله عليه وسلم فيجرحونه اكثر من سبعين جرحا فيتهافت على نفسه من الضعف الجثماني ثم يذبحونه ويدوسونه بخيولهم ويحتزون رأسه الشريف ويذهبون به الى عبيدالله ابن زياد ويقولون بعد ذلك ان قلوبهم كانت مع الحسين وسيوفهم كانت مع عبيد الله . يالله أيباع الضمير بيع السماح ؟ او كان اولئكم الجند آلات متحركة يقودها الذهب ؟ ! آواه لو عرفوا بأي سيف مسموم طعنوا قلب الامة الاسلامية وقتذاك آواه لو عرفوا !

إنهم طعنوه بسيف الانقسام والتفرقة طعنة نجلاء فمنذ ذلك اليوم اخذ سوس الفساد ينخر في جسم الامة الاسلامية . وانه لعمر الحق ، لو اجتمع امر العرب على الحسين لتوحدت كلمة العرب والمسلمين ولبقوا حتى الآن في قوة ومنعة ولكنه قضاء الله الذي لامرد له ولا حول ولاقوة إلا به سبحانه وتعالى .

والآن فلنعد الى ما كنا فيه فنقول : وتحدثنا الرواية ان حميد (سمية) هذا جعل ينكث الثنايا ، ثنايا الحسين الطاهرة فقال له احد الصحابة الافاضل (ارفع قضيبك فطال والله مارأيت رسول صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه) .

لقد قتل سيدنا ولكن هل غلب وبعبارة اخرى هل خضع للباطل وعنا ؟ ؟ هل بايع لمن لايستأهل ولاية امر المسلمين ؟ اننا نجيب عن كل هذه الاسئلة بالنفي قائلين (ان لم ينتصر الحسين على اعدائه بالسيف فقد انتصر عليهم بالرأي والعمرى ان هذا نصر مبين !

نعم قتل سيدنا الحسين ، لقد مثل به ، لقد مات واحر قلباه وهو يشتهي الماء الزلال ولكن بعد ان ضرب انا في البطولة والشمم مثلا ما اروعه من مثل ، اجل لقد مات